القصص

قصـــة مصرية

المعـــلم لوقا . . .

اجتاز الترام الميادين والشوارع ، وأخذ ينساب بين الحقول فى الطريق إلى الأهرام ؛ وكان القمر قد نفض الغيوم عن وجهه ، وبدا سافرا يضحك للحقول ، ويحنو على النباتات المرتجفة فى نسيم الليل ، ويناغى الأغصان المشرئبة اليه من أعالى الأشجار ، فانبسطت أسارير « المعلم لوقا » سائق المركبة ، وفارق العبوس وجهه الهزيل اليابس ، وأخرج علبة سعوطه وأدناها من أنفه ، يلتمس الصحو والانتعاش .

لم يكن الرجل فى حال حسنة ، لأن الليلة باردة قارسة البرد ، وهو مسن ، ليس فى هيكله من اللحم ما يقى عظامه المقرورة ، ولو كان معافى لما شكى ، لكنه مريض ، مبهور الأنفاس من السعال ، معصوب الرأس ، يحرك عينيه بعناء كأن السعال قد شدهما فى محجريهما بخيوط قوية . . . ما كان أحوجه أن يأوى الى فراشه ! لكنه آثر أن يشتغل الليلة ، ليظفر بيوم راحته فى الغد ، لأن الغد « عيد الميلاد » ، وهو يريد أن يبقى فى البيت مع زوجته « كثورة » وابنته « ياسمينة » يستقبل المهنئين بعودة الأيام ، والمتمنين أن يمضى الحول ، فاذا بياسمينة أم لطفل جميل .

وإذ ذكر « عم لوقا » فتاته ابتسم ، ونظر فى ساعته يتعجل ميعاد العودة ، ثم أرسل بصره فى الطريق أمامه ، وابتدأ يغرق فى تأملاته : كم له من السنين وهو يقف هذه الوقفة ؟ ! . . إنه الآن شيخ ! كان فتى عندما ارتدى سترة (المصلحة) للمرة الأولى . كان وجهه ناضراً ، وشاربه أسود مفتولا ! وكان له حاجبان جميلان ! وكان شعره مرتباً معطراً ! . . أما الآن فقد صار يابس الوجه ! ظهر الشيب فى حاجبيه ، وعبثت بجمالهما الأيام ! ولم تعد رأسه معطرة مزينة ، بل استغنت عن العطر بأردإ الصابون ؛ ولم يعد للمشط معها شأن ، لأن شعرها قد انتحل ، ولم تذر الأيام منه غير بقايا مبعثرة متباعدة . . . وندت عن صدره آهة طويلة وهو يغمغم : « ما أعجب أمر الحياة ! ! »

واكتأبت نفس « لوقا » واشتد عليه صداعه ، واستيقظ سعاله ، فاضطربت الصور فى مخيلته ، وانهدت قواه ، ولم يعد يملك كل وعيه ، وصار يستقبل بذهول هذه الأصوات المنصبة فى أذنيه من ضجيج العجلات ، وصرير الآلة ، وهمهمة الأشجار فى أذن الليل . . . فلما وصل الترام الأهرام تهالك فى مقعده ، وأغمض عينيه وهو يتحسس يده جبهته الملتهبة ، ويحدث نفسه : لا بأس . سأقضى العيد مع ياسمينة ، وارتسمت فوق شفتيه ابتسامة سعيدة ، ورقص شاربه الفضى .

حاول أن ينام ريثما يحين وقت العودة ، لكن الالم كان يحتدم فى جمجمته ، ويتردد فى عظامه فيعيده إلى اليقظة . . . وأخيراً آثر أن يفكر ، وأن يرسل روحه فى ماضيه .

واضطربت مقلتاه خلف جفنيه المقفلين ! فقد ذكر (آلة القيادة) . آلته المحبوبة ؟ ! التى يحركها فتندفع المركبة ، وتشق الطريق وهى تغنى بعجلاتها فوق القضبان ! . . واشتاقت يده أن يلمسها ، ويشركها سعادته بالعيد ، فمد نحوها يديه . ما أعزها عليه ! أليست رفيقة حياته ، وعشيرته الدائمة ، كزوجته كثورة سواء بسواء ! .

وتقلصت ابتسامته عن شفتيه ! . . ذكر سيئات آلته ، وانها لم تكن له مطيعة ولا مواتية فى بعض الاحيان . وبدت أمام عينيه صور أشلاء مبعثرة ، وطربوش فارق جبهة هشمتها العجلات . ودم قان يبلل الحصى ويصبغ القضبان ! . . . وذهب يستر عينيه بيد المرتجفة النحيلة ، فقد ذكر موقفه فى قفص الاتهام ، فى محكمة الجنايات ، والنائب يحدث المستشارين قائلا : كان الصبى وأخته فى طريقهما إلى المدرسة عند ما دهمهما هذا الرجل الشرير المستهين بالارواح من العدل أن ينال أقصى القصاص .

لقد برأته المحكمة . « ومضت عشر سنوات » لكنه يشعر للآن أنه مذنب . وأنه قد ارتكب خطأ ما . وخيل اليه ان الصغيرين ينظران

اليه بعيون ريبة عاتبة مملوءة بالألم . وأن أبويهما يجدد ان الحزن فى العيد ، ويذهبان الليلة الى الكنيسة فى ثياب سوداء يلتمسان العزاء ويسألان النعيم لولديهما والسلوان لأكبادهما الحرى ، فانسابت الدموع من بين جفنيه وبللت وجهه النحيل ، وغمغم بصوت حزين « رحماك يارب »

وارتد فكره من هذه الجولة فى الماضى . وذكر أن « ياسمينة » تنتظره ليشاطرها طعام العيد ورأى مائدة شهية ، متعددة الالوان عقب أيام الصوم . وماتناول فيها من طعام غليظ مجهز بالزيت ، فسال لعابه . وبدأت اساريره تنبسط ... وبدأ يصفح عن آلته العزيزة وما فعلت . طالما مكرت به كثوره واذنبت اليه وساعها فلا ضير ان سامح آلته المحبوبة .

وأخذ القمر يغالب الغمام ثم احتجب ، وأظلت الدنيا وامتدت ظلمتها الى روح « المعلم لوقا » .. عاد فذكر شيخوخته ، وان الحياة ستتبرع له بأيام أخرى قليلة إن كانت كريمة . من يدرى قد لا يأتى عليه عيد جديد ! .. قد تقضى « ياسمينة » العيد الآتى وحدها ، وتشتمل بثوب أسود ؛ وترسل أثوابها الزاهية الملونة الى المصبغة : ويطفىء الحزن لمعان عينيها ، ويذهب ببهجة قلبها ، وتصير ابنة يتيمة منكرة ! ..

نشر يديه فى الهواء كأنه يحاول ان يحميها ، ثم سقطت يداه فوق ركبتيه ، وانتابته رعدة ، وأخذ السعال يصخب فى صدره . ففتح عينيه وأخذ يحدق فى الظلام وقديم وجهه شطر الصحراء ورأى نفسه يرتقى الأهرام كما كان يفعل أيام الشباب ! وخال انه جالس على القمة يستعرض الحياة من هناك ، ويرسل بصره من مكانه العتيد فى القفر البعيد الممتد ! .. هو واحد من هذه الهوام الزاحفة على ظهر الارض يسحقها الموت بقدمه وهى تسعى ، فتصير نسيا منسيا كهذه الحشرة التى يدوسها عابر السبيل ! ..

وبدت له الحياة متعبة ثقيلة لاخير فيها ... ما أشبهه برجل سائر على الرمال ، تائه ضال ، يسير نحو مصير مجهول تضربه الشمس ، ويقرسه البرد ، وتروعه وحوش الفلاة ... يسير ويسير ، وهو ينشد الواحة . ويحتمل الصعاب والمشاق على أمل أن يستريح فى الغد . وتتجلى أمامه الواحة التى طال اليها سعيه واشتياقه فاذا بها أشبار جديبة ، لها وسائد من تراب يستريح عليها راحة الأبد ، ولا يعود يخشى عريا ولا جوعا ...

ماذا كسب من حياته ! .. لاشيء . عمل ، وعرق ، وخبز ... ليست هناك مسرات . ولد وتألم ، سيموت . لم يبق غير المرحلة الاخيرة ...

وحدق فى الآلة التى امامه ، وهى جالسة صامتة ، تنتظر يده لتدور ، وتفنى الوقت فى الدمدمة . لم تعد جميلة فى عينيه ! ود لو يحطمها ! رأى نفسه عبدا لها مربوطا بها يطوف واياها حول المدينة كما تطوف البقرة الذلول حول الساقية كل النهار . أى فرق بينهما ! .. بل انه أسوأ منها حالا ! هى تعمل لقاء حفنة من الشعير ، وهو يعمل لقاء أجر لا ينيله بين الناس الترف الذى نالته بين البهائم ...

ماذا أصاب من حياته ! .. تنهت روحه ، وأحس كأنه قد حمل على كتفه من ركبوا معه طيلة مدة خدمته . ذكر مركبة الدرجة الأولى التى تكون الى ظهره اذ يقود الترام . وذكر المترفين الذين يصعدون اليها . ناس من طينة غير طينته . ليسو قوما ملقين متعبين مثله أيديهم ملساء ناعمة لم يجر عليها العمل الشاق . وجباههم منبسطة مطمئنة لم يبللها عرق الكفاح ، وليس على وجوههم ثوب الذل الذى نسجه على وجهه الضنك والزمان اللئيم ... ذكر كبرياء بعض السادة وعجرفة بعض السيدات . وخشيتهن على أثوابهن الجميلة أن تمسها سترته الخشنة أو يداه الشقيتان .

ذكر كم منهم ومنهن يندفعون الى باب المركبة وهو يهم بالمسير فتكاد أقدامهم تزل ، فيقتحمونه بأبصارهم وتزدحم أفواههم بكلمات الازدراء والتحقير ، ويصفعونه بلهجة الآلهة وهم يصرخون : يا اعمى ، بينما يقيدون (نمرته) فى مذكراتهم ذات الجلد الجميل المزركش ، ليبلغوا شكواهم الى الشركة ، حتى تجزيه بخصم بضعة أيام من راتبه ! .. كم من الأيام عمل بلا أجر ، بفضل هذا العنف من الناس ! كم غضب ويئس وطاش حلمه . وود لو يقتاد المركبات الى النيل لينتقم ويستريح ... عاد الى حلق المعلم لوقا طعم المرارة الذى يغص به المضطهد والمظلوم . وامتدت اناملة المرتجفة الى القطعة النحاسية المعلقة بياقته . وقد نقشت عليها (نمرته) فأحس كأنه مسجون محكوم عليـــه بالعمل الشاق مدى الحياة ، وغمغم . « يارب رحماك ! ... »

ونظر فى ساعته ... بعد قليل سيعود الى القاهرة . سيجمع فى طريقه الخارجين من المسارح والصالات . عشاق مسرات الليل زبائنه الدائمين ، وشر الراكبين . رحم الله ايام الماضى ! لم يكن الناس قد تعلموا الافراط فى السهر ، فلم يكن الطريق يزدحم عند ما ينتصف الليل . وكان يسوق بسرور واطمئنان لايخشى شيئا ، لأن الطريق خال والناس فى مضاجعهم يستقبلون احلام الفجر ... أما الآن فيجب ان يجلو أعصابه ويشحذ حواسه ، ويلزم جانب الحيطة والحذر ، لأن الحانات بدأت ترفض المتهالكين على الشراب ، وتطرد النائمين فوق الموائد . وهم الآن يسيرون فى الطريق يترنحون وقد

يحلو لبعضهم أن يداعب السائق ، أو يغنى وهو جالس بين القضبان ! .

وقد بدأت الصالات والمراقص تلفظ روادها . دور الدعارة تتقيأ من ابتلعتهم أول الليل . والفتيات خارجات من دور السينما فى رفقة الفتيان ! فى ذراع كل فتاة شاب ! والذراع حار ! لا تحلولهم إلا حفلات الليل ! . . تنهد (المعلم لوقا) وهو يفكر ويحدث نفسه : رحم الله ايام زمان ! أيتغير الناس هكذا ! أين جيل (كتوره) وعهد الحرائر ! أين الثياب الفضفاضة ! ابن البرقع الابيض . واليشمك ، والحبره ! ذهبت الحشمة وولى الوقار الادبار من (بر مصر) ! . . لم يعد النساء يعنين بصيانة أجسامهن من عبث الناظرين لا يرى نساء محجبات إلا عند ما يمر بسيدنا الحسين والامام ! لكن الملاءة فقدت هيبتها وأصبحت وسيلة بنات البلد لهز الارداف ! . .

ومض السخط فى عينى « المعلم لوقا » وحوقل وهو يعيد فى ذهنه صورة هؤلاء الفتيان الذين وقفوا بجانبه بالأمس بعد منتصف الليل . كانت رائحة الخمر تنبعث من أفواههم ، والكلمات البذيئة تتكاثر عند شفاههم كما يتكاثر الذباب عند الأقذار . كانوا يتهامسون متهكمين بطربوشه الباهت الملوث ، وكيف اسودت حافته . . . وأخذ يجذب شعرات شاربه بعنف وأنامل متوترة ! . .

وانسعت حدقتاه فجأة ! . . صور عنيفة كانت تخطر أمام عينيه ! ذكر أنداد هؤلاء الغلمان من أربعة عشر عاماً خلت . . كانوا رجالا بأرواحهم فتيانا بأجسادهم . لأن الزمان كان يخلق فى الفتيان جهد الرجال . كانت الأرواح كاملة النمو تامة النشاط . لم يكونوا يتحدثون عندما يقفون خلفه عن الفتيات والمودات ، لأن حديثاً آخر كان يشغلهم . ولم تكن تنبعث من أفواههم رائحة الخمر بل قد كانت تقبل الى قفاه . اذ يتناقشون أنفاس حارة ، ترسلها صدور ألهبها الشوق للحرية . لم يكونوا ضاحكين ساخرين ، بل قد كانوا أغلب الوقت حزانى واجمين ، ينظرون فى صحف الليل فيصمتون ويطيلون الصمت ، وهم يحدقون فى أعمدة من الصحيفة بيضاء لا كتابة فيها ، لأن بداً لا تحب مصر تبعثر الحروف المصفوفة حتى لا تستيقظ الأرواح لكن الأرواح يقظى متنبهة ، تقرأ الحديث ، وتعلم الخطب وإن لم يكن مكتوبا ! . .

لم يكونوا يتهكمون به ، بل قد كانوا يحدثونه عن مصر الفتاة ، والمستقبل ، والأيام الآتية ! . . ويناشدونه ان يلبى داعى الوطن يوم يطلب الوطن المضى دماء بنيه يجدد بها الحياة .

وازدحمت أمام عينى « المعلم لوقا » الصور المجيدة . وبكى كأن العام ١٩ ، والتلاميذ عائدون من مدارسهم يملأون الترام ويكونون مواكب جميلة متنقلة هاتفة للحرية ! وهو القائد لهذه المواكب لانه السائق ، قائد فخور تياه ، لا يزعجه رفيف الرصاص ، تطلقه أيد أثيمة . مشتاقة لابادة الارواح . دانية على صرع الأحرار . وتمثل فى ذهنه صورة الفتيان وهم يسقطون مجندلين يهزون الأعلام فى أيديهم وهم يتخبطون فى دمائهم . . وذكر كيف غلى الدم فى عروقه فقفز من الترام وتلقى العلم عن أحد الشهداء وذهب يعدو فى الطرقات يزأر بأن الحياة لمصر والنيل لبنيه ! . . وأحس بدم البطولة يعود فيجرى فى عروقه ، ويجدد فى صدره الحياة ، فشمخ بأنفه ، وصعر خده ، وابتسم ابتسامة استحمت فى الدمع المتهاطل من عينيه ، ودس يده فى جيبه يلتمس علبة سعوطه وأفرغ مافيها فى أنفه وهو يغمغم ! « يا ماشافت العين يالوقا . . »

وكأن صدره لم يحتمل هذا الانفعال فاستيقظ سعاله ، وأخذ يعبث بانفاسه فى غير رحمة ولا هوادة ، حتى اغرورقت عيناه وانصدع جنباه . هى نزلة شعبية مزمنة مضت سنين وهو يتطبب ، وينفق فى الادوية نصف اجره الضئيل على غير جدوى . ولم تكن النوبات بادىء الأمر حادة هكذا . ولكن مهنته هى التى قضت عليه استقبال هواء امشير البارد وهواء بؤونه النارى هو ما أحدث هذه التهيجات بصدره واتلف رئتيه . . كم هم بترك العمل ، ثم كان يذكر حاجة عياله للقوت . فيعود وهو ناقم . يعود لخدمة سيدرى أرواح خدامه أرخص من أن تفتدى بالواح من الزجاج تقيهم تغيرات الجو ! ليس أمامه الا ان يخضع ، ويحتمل ، ويدفع ثمن قوته من حياته ؛ وينفق سلفا أيامه الآتية ليتقى غوائل الجوع فى الغد القريب ! . .

ولم تترك غلته ليفكر ، وبدأ يسعل من جديد . . وتنهد . لو كان له أولاد لكان الآن فى دفء الفراش . رجل سىء البخت . دفنهم بيده اربعة . غيبهم التراب وهم فى سن الشباب ليتهم ماتوا صغارا كاخوتهم الآخرين قبل ان تتعلق روحه بهم ويحبهم حبا مفرطا كانت يد المنون تقصفهم كما تقصف الريح السنابل وقد بدأت تمتلىء بالقمح . .

واشتد البرد ، وازداد الليل حلكة ، وساد الارجاء صمت عميق ، وأخذ الرجل ينتفض ، خيل إليه أن أولاده الأربعة يحيطون به ، جالسين فى أكفانهم لا تبين منهم غير وجوههم الشاحبة ، وانهم يعتبون عليه اهماله فى علاجهم ، وعدم مواظبته فى السهر عليهم فى مرضهم ، وأمضه هذا الخاطر وأقلق روحه ، وذهب الشك الماكر بعذبه ، وذهب الوهم يصور له انهم يحتضرون الساعة بين يديه ، وانه يسبل أجفانهم ، ويطبع على جباههم القبلة الاخيرة .

كان يحسب أن الجراح قد اندملت ، وأن يد النسيان قد مسحت الاحزان عن صدره ، فاذا بالذكرى تمزق هذه الغشاوة الرقيقة التى نسجها الزمان ، وإذا بالجراح تتفتح ، وإذا به يحس أن بين جنبيه كبداً قد اختزمها الأسى ، فلم يبق منها غير قطعة كالاسفنج راوية من قيح الحزن وصديده .

ووضع يده على جنبه يلم بها حشاه الممزق، وأخذ يبكي!..

يبكي ؟!. كيف! لم يكن يبكيهم وقد كان الحزن جديداً، لأنه كان وقتذاك رجلا قويا. وكان يزعم أن البكاء للاطفال والاحتمال للرجال، لأن الرجل كفؤ لحمل اثقال الهموم. بل قد كان ينكر على زوجته أن تعول وتنتحب، ويطلب منها أن تكون امرأة صبوراً قوية، وكم اختطف حزامه من وسطه وانهال عليها بالضرب الموجع — لترأف بنفسها! فما باله الآن يبكي وقد صار شيخا؟! ان الاطفال اضراب للشيوخ في الابانة عن عواطفهم!.

وأهمته هذه الفكرة، وأزعجه أنه صار ضعيفا يضطهده الحزن فلا يستطيع حبس دمعه، وكتم أنينه وحدث نفسه: «والله طيب يازمان! بقيت عيل يالوقا! فين عزم الرجال!..»

وصعب عليه الأمر فاستغرق في البكاء وأخذ ينشج نشيجا عاليا.

وإذ هو في بكائه فاجأته نوبة السعال، وكانت هذه المرة قوية بجاحة متلفة... وأحس «المعلم لوقا» كأن روحه تتسرب من بين جنبيه. وكانت أعضاؤه ترتجف وتتشنج، وأنفاسه تختلج في صدره اختلاجا قويا. ثم أخذت حركته تهدأ، ورعدته تسكن، وأنفاسه تعود الى الخمود

وشعر «لوقا» في تلك الآونة بشوق شديد لياسمينة، وخيل له أنها مقبلة اليه فابتسم، ومد نحوها يديه، ثم سقطت يداه الى جانبه، ومال عنقه الى كتفه...

وأزف وقت العودة، وذهب (الكمساري) يتفقد صاحبه: وهمس في أذنه: لوقا. كل عام وأنت طيب. الدنيا برد. سوق بسرعة هلكتنا. يتوب علينا!..

كان لوقا فاتحا عينيه يحدق في الفضاء، لكنه لم يجب رفيقه، فاغتاظ، وظنه لا يحفل بحديثه فلكزه واذا به يتداعى بين يديه..

وظهر له ماخفي من أمر زميله، وحدق في عينيه فعلم أن «المعلم لوقا» قد أنتهى أمره مع الحياة فاسبل جفنيه. ومزق السكون صوت ينادي: «لاحول ولاقوة إلا بالله... انا لله وانا اليه راجعون!..

كانت (كتورة) تغط في النوم، وكانت الابنة جالسة في ثوب العيد تنتظر أباها وقد لعب القلق بفؤادها، فلما قرع الباب تهلل وجهها وهتفت وهي تدفع يدها على المزلاج: (ابي، كل عام وانت بخير).

ولم يجب أبوها، لأنه كان نائما على كتف رفيقه. وكان يبدو على وجهه أن نعاسه عميق، وانه لن يستيقظ سريعا، وحدقت ياسمينة في وجهه لعله يلين ويستيقظ، فلم تظفر بغير تلك الابتسامة الواضحة على شفتيه. كأنه كان سعيداً، موفور السرور بالوصول الى الراحة..

يوسف جوهر عطية

مذهب السمبوليسم

(بقية المنشور على صفحة ٣٠٧)

فينا، أو قل هي نحن. وأنا كلما نظرت للاشياء شعرت بنفسي وأحسست بحياة عقلي. وما تنظيمي للمناظر التي رأيتها ثم نظمي شعراً لهذه الاحساسات الا اباحة مني بجانب أو بجوانب من أسرار نفسي. ولكن أليست الطبيعة كلها رمزاً لحياتي ووجودي؟ أليس هذا الرمز هو الذي يؤلف بين النفس والطبيعة؟

ان الفنان الرمزي لايجعل همه ان ينقل صور الطبيعة نقلا ويعرضها على الناس، انه يفسر ويؤول قبل كل شيء مايراه، ويعطيك ماأوله بتعابير ملؤها الرموز والكنايات، وعليك ان ترى وتؤول وتفهم هذه التعابير، لأنه فنان يود الادراك عبداً للراحة، والفتور. هو يريد ان يطربك بموسيقاه فتطرب، ولكن موسيقاه تغري الأرواح باستقراء الأرواح. فتذهب روحك على أثره. وانت تعلم وقد لاتعلم! حتى تجوز مايقدر لها ارتفاعها من مراحل. وان في هذا السفر تعباً ولكنه تعب فيه لذة المستكشف

فاذا كان يطيب لك ان تجول في بقعة غريبة تطلع على مجاهلها وتفرح بما تجد، فجدير بك ان تكونا أكثر طرباً، وقد وقعت على بقعة نفسية مجهولة تستكشف مخبوءاتها، وتقف على مكنوناتها

كتب (ملارمي) جوابا عن سؤال، «ان البرناسيين يأخذون الشيء بتمامه ويبدونه للعين، مع أن تعيينك للشيء هو حذف ثلاثة ارباع لذته، لأن اللذة الحقيقية تكمن في الاستكشاف التدريجي. وفي التنويه الذي ينطوي على السحر الذي ألف عالم الرموز.

ولكن هذا الفن الشعري الذي كانت له مآثره كانت له عيوبه أيضا، فأصحابه وهم ينطقون عن الغامض والمبهم، وقعوا في التعابير المظلمة، فجاء شعرهم محاطا بحجب كثيفة لاتزيحها الأيدي.

على أن الشعر الرمزي — برغم هذه الأخطاء والاخطار — قد فتح في الأدب عالما اتسع للاوهام والحقائق الخفية، وانشأ روحا جديدا للعاطفة الشعرية التي تعددت وتتعدد من أجلها المذاهب، وهي واحدة لكنها غامضة لم تزل وراء الرموز؟

دير الزور — خليل هنداوي